التعليق الختامي

السيرة النبوية ليست سيرة بطل قومي أو زعيم وطني أو مصلح اجتماعي أو عالم ألمعي نعجب بشخصه ونقدر إنجازاته ونفخر بأعماله ونستفيد بإبداعه إنما هي الجانب التطبيقي للإسلام والمنهج السلوكي تعاليم القرآن والقدوة الحسنة للمسلمين والرحمة المهداة للعالمين .

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]

فإذا كان القرآن الكريم هو الدستور فسنة النبي هي القوانين المفصلة والمبينة له لذا حرص الرواة على تدوين كل أفعال النبي وأقواله وكل صفاته وأحواله : مأكله ومشربه .. ملبسه ومركبه .. جده ومزاحه .

ليست سيرة الرسول قصة تروى للتسلية وشغل الفراغ أو للترويح عن المتعبين أو تواشيح وأغاني تطرب السامعين إنما هي دروس وعبر لأولي العقول والأفهام وهدى ورحمة للمؤمنين ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١]

متى دوِّنت السيرة

إن الحديث النبوي كان أسبق من كتابة السيرة النبوية عموماً ؛ إذ أن الحديث الشريف بدأت كتابته ، كما هو معلوم ، في حياة رسول الله ، بإذن ، بل بأمر منه .

أما كتابة حياة رسول الله ومغازيه بصورة عامة فقد جاء ذلك متأخراً عن البدء بكتابة الحديث الشريف ، وإن كان الصحابة يهتمون بنقل سيرته ومغازيه شفاهاً .

ولعل أول من اهتم بكتابة السيرة النبوية عموماً هو عروة بن الزبير المتوفى ٩٢ هـ ثم أبان بن عثمان المتوفى ١٠٥ هـ ثم وهب بن منبه المتوفى ١١٠ هـ ثم شرحبيل بن سعد المتوفى ١٢٣ هـ ثم ابن شهاب الزهري المتوفى ١٢٤ هـ .

غير أن جميع ما كتبه هؤلاء قد طُمِس وتلف مع الزمن ، فلم يصل إلينا منه شيء. ولم يبق منه إلا بقايا متناثرة ، وجاء في الطبقة التي تلي هؤلاء من تلقف كل ما كتبوه، فأثبتوا معظمه في مدوناتهم التي وصل إلينا معظمها بحمد الله ، ولقد كان في مقدمة هذه الطبقة محمد بن إسحاق المتوفي ١٥٢ هـ . وقد اتفق الباحثون على أن ما كتبه محمد بن إسحاق يعد من أوثق ما كتب في السيرة النبوية في ذلك العهد ، ولئن لم يصل إلينا كتابه (المغازي) بذاته إلا أن أبا محمد عبد الملك المعروف بابن هشام قد جاء من بعده ، فروى لنا كتابه هذا مهذباً مُنَقَّحاً ، ولم يكن قد مضى على تأليف ابن إسحاق له أكثر من خمسين سنة .

وعلى كلٍّ ، فإن مصادر السيرة النبوية التي اعتمدها سائر الكتَّاب على اختلاف طبقاتهم محصورة في المصادر التالية :

أولاً : كتاب الله تعالى . فهو المعتمد الأول في معرفة الملامح العامة لحياة النبي، وفي الاطلاع على المراحل الإجمالية لسيرته الشريفة .

ثانياً : كتب السنة النبوية ، وهي تلك التي كتبها أئمة الحديث المعروفون بصدقهم وأمانتهم ، كالكتب الستة وموطأ الإمام مالك ومسند الإمام أحمد وغيره ، وإن كانت هذه الكتب لم يراع فيها التتابع الزمني للأحداث .

ثالثا : الرواة الذين اهتموا بسيرة النبي وحياته عموماً ، وقد كان في الصحابة الكثير ممن اهتم بذلك ، بل ما من صحابي كان مع رسول الله في مشهد من مشاهد سيرته إلا ورواه لسائر الصحابة ولمن بعده أكثر من مرة ، ولكن دون أن يهتم واحد منهم بادئ الأمر بجمع هذه السيرة وتدوينها . (١)

والعقاد لم يعتمد في كتابه إلا على المصدر الأخير ، كتب السيرة ، ولم يعرض أقوال النبي وأفعاله والأحداث والوقائع التي رواها كتاب السيرة على القرآن الكريم، ولا على كتب أئمة الحديث الشريف المعروفين بصدقهم وأمانتهم ولا رجال علم مصطلح الحديث حتى يتبين الصحيح من الضعيف والموضوع .

رواة السنة منهم العدل الضابط ومنهم المتهم في عدله أو في ضبطه أو في كليهما، والروايات فيها الصحيح وفيها الشاذ والمعلل .

يقول الشيخ محمد الغزالي : " إن آفة المؤرخين للسيرة الشريفة ولغيرها من أحداث الناس وأطوار الزمان : قلة التثبت وضعف التمحيص . وقد وقع كثير من الأقدمين والمحدثين في هذا الخطأ على تفاوت بينهم في دقة المأخذ وحدة الانتباه "(٢)

والله تعالى لم يترك سنة نبيه ﷺ تضيع هباء، فقد قيَّض لها من أهل الإخلاص علماء أعلامًا نذروا حياتهم لتنقية سنة رسول الله ﷺ ولم يألوا جهدًا في جمع السنة وتدوينها وتوثيقها وتنقيحها حتى تصل إلينا في صحاح اعتمد عليها الفقهاء والعلماء كمصدر ثاني للتشريع مع القرآن الكريم.

---

(1) د. محمد سعيد رمضان البوطي " فقه السيرة النبوية " دار الفكر المعاصر بيروت . ص ٢٦ ، ٢٧ بتصرف يسير .

(2) محمد الغزالي " فقه السيرة " دار الشروق ص ١١ .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أنشئوا علومًا جديدة للحديث النبوي الشريف، للتثبت منه، فكان علم الرجال وعلم الإسناد، وعلم الجرح والتعديل وغيرها، وكلها تتابع رواة الأحاديث وتدرس أحوالهم، وما ظهر من أمرهم وما خفي، للتأكد من مدى صدقهم فيما نقلوه عن الرسول ﷺ.

أما علم الرجال أو علم الجرح والتعديل فأخذ يبحث في التفاصيل المهمة عن حياة رواة الأحاديث وأحوالهم ومدى ثقة المعاصرين لهم فيهم، وهل كانوا ثقات ليؤتمنوا على نقل حديث رسول الله ﷺ وضعوا للراوي شروطاً صارمة لقبول حديثه.

ومن علوم هؤلاء الرجال تعلمنا ومن كتبهم في تخريج الأحاديث أخذنا وعلى أوثق المصادر اعتمدنا في مراجعة هذا الكتاب وغيره .

مناقشة منهج العقاد في تأليف الكتاب

يقول العقاد في مقدمة الكتاب مبيناً هدفه من كتابته : " كتبناه ونحن نستحضر في الذهن تبرئة المقام المحمدي من تلك الأقاويل التي يغلط بها الأغرار والجهلاء عن حذلقة أو سوء نية .. إنما الكتاب تقدير " لعبقرية محمد ﷺ " بالمقدار الذي يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم فقط " (١)

إذن للعقاد في هذا الكتاب هدفان : الدفاع عن النبي وتبرئته من التهم التي يرمه بها المغرضون ، وبيان عبقرية النبي ﷺ ليعترف بها المسلمون وغير المسلمين ، وهو في سبيل تحقيق هذين الهدفين فإنه يذكر الرأي دفاعاً عن النبي ﷺ في تهمة من التهم أو إظهاراً لجانب من جوانب عبقريته ﷺ ثم يبحث في كتب السيرة عما يؤكد رأيه ولا يبالي إن كانت ما يستشهد به صحيحاً أو ضعيفاً أو حتى موضوعاً ، وهذا المنهج

---

(1) عباس محمود العقاد " عبقرية محمد " المكتبة العصرية للطباعة والنشر بيروت ص ٨

عكس المنهج السلفي النصي الذي يتبنى رأياً من آراء القرون الثلاثة الأولى ثم يبحث عن الأدلة تؤكده ولا يهمه إن كان هذا الرأي صالحاً للزمان والمكان والحال أم لا .

وهكذا تحولت أحداث السيرة النبوية بل السنة النبوية كلها من بيان للقرآن الكريم إلى تسويغ وتبرير لآراء وأفكار وهوى الكتاب والوعاظ إلا من رحم ربي .

يقول د. محمد سعيد رمضان البوطي : " وبدأت تظهر كتب وكتابات في السيرة النبوية ، تستبدل بميزان الرواية والسند وقواعد التحديث وشروطه ، طريقة الاستنتاج الشخصي ، وميزان الرضا النفسي ، ومنهج التوسم الذي لا يضبطه شيء إلا دافع الرغبة وكوامن الأغراض والمذاهب التي يضمرها المؤلف " (١)

فإذا كانت المدرسة العقلية التي ينتمي إليها العقاد تنتصر لمتغيرات العصر والمعارف الحديثة والأفكار العصرية السائدة فإن المدرسة السلفية النصية تنتصر لبعض آراء السلف التي توافق هواهم ولا يهمها إن كان هذا الرأي عسير التطبيق أو موقع الناس في الحرج أو مخالفاً ما تعارفوا عليه ، وأصحاب المدرستين : العقلانية الحديثة ، والسلفية النصية لا يفرقون بين الثابت والمتغير في الدين ففي حين المدرسة العقلانية الحديثة تجعل الثابت متغيراً ، فإن السلفية النصية تجعل المتغير ثابتاً ، والمنهج الوسطي يفرق بين الثابت وهو المعلوم من الدين بالضرورة الذي لا اجتهاد فيه ، وبين المتغير وهو مجال اجتهاد أهل الذكر والتخصص الذين يجددون للأمة دينها في ضوء النصوص الصحيحة ومقاصد الشريعة وحقائق العلم ومصالح الناس المحققة . (٢)

---

(1) د. محمد سعيد رمضان البوطي " فقه السيرة النبوية " مرجع سابق ص ٣٣ .

(2) لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا " ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية " ، " المدارس السلفية ، جدلية النص والعقل والمصلحة " دار زهور المعرفة والبركة .

عن أبي هريرة عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أنه قال : " إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا " [صححه الألباني]

فإذا كان خطأ العقاد أنه لم يراع صحة النص بقدر مراعاته فقه الواقع الذي كان يعيشه فإن خطأ السلفية النصية أنها لا تراعي فقه الواقع بقدر مراعاتها صحة النص، وكان على المدرستين أن يجمعا بين صحة النص وفقه الواقع .

ولا يتعارض أبداً نص صحيح صريح ، وعقل فطن صحيح ، ومصلحة أمة النبي الرحيم السميح .

يقول الشيخ صالح بن سعد اللحيدان : " والعقاد في عبقرياته أجاد وبذل ومنح الثقافة جديداً من الطرح المتميز ، وهذا يكفي لو أنه راجع صحة النص وأكده بالسؤال من ذوي الاختصاص ، ولو أنه لم ينطلق من منطلق واحد ليخضع كل شخص درسه لذلك المنطلق النفسي .

أقول ليته فعل ذلك لأني رأيت الرجل مؤهلاً للاستقصاء لعمقه ودرايته ، لكن لم يتحقق من النص فجعل في عبقرياته الصحيح والضعيف وما لا أصل له ، فزلت هنا زلة عنيفة وانهدم ما بنى على ضعف النص من حكم أو أحكام . (١)

وربما يقال دفاعاً عن العقاد أن كل ما ذكره اعتمد فيه على كتب السيرة ، والحقيقة أن العقاد اعتمد على بعض كتب السيرة : وتحديداً سيرة ابن هشام ، والكلبي ، والواقدي وهذه الكتب تشتمل على الصحيح والضعيف والموضوع لذا كان عليه أن يعتمد على كتب الحديث الصحاح وهي موجودة ومتوفرة ومتاحة ، فالعقاد لا يخرِّج الأحاديث ولا يشير إلى المصدر الذي أخذ عنه إلا نادراً جداً . (٢)

---

(1) الشيخ صالح بن سعد اللحيدان " كتاب نقد آراء ومرويات العلماء والمؤرخين على ضوء العبقريات " دار راجح للدراسات والنشر والتوزيع ص ٦

(2) نفسه ص ١٨

لقد اجتهد العقاد في الدفاع عن الإسلام ونبي الإسلام ، واجتهدنا في استدراك ما وقع فيه من أخطاء حتى تكمل الفائدة إن شاء الله تعالى فلا يحرم المسلمون من أفكار العقاد التنويرية ، ولمحاته الذكية ، وروده على مطاعن المغرضين الشيطانية، كما لا يحرمون من معرفة صحة النص واستدراكات العلماء على آراء العقاد .

وصف النبي ﷺ بالعبقري

أكبر ما أخذ على العقاد هو وصف النبي ﷺ بالعبقري ، ونبدأ أولاً ببيان معنى كلمة عبقرية في اللغة حتى نقف على معناها الحقيقي قبل مناقشة صحة أو عدم صحة وصف النبي ﷺ بها .

قال ابنُ الأثِيرِ : عَبْقَرُ : قريَةٌ يَسكُنها الجِنُّ فيما زَعَمُوا فكُلَّما رَأوْا شَيْئاً فائِقاً غَرِيباً مَما يَصْعُبُ عمَلُه ويَدِقُّ أو شيئاً عظيماً في نفْسِه نَسَبُوه إليها . والعَبْقَرِيُّ : الكامِلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . والعَبْقَرِيُّ : السَّيِّدُ من الرِّجَالِ وفي الحَدِيث " أنّه قَصَّ رُؤْيَا رَآهَا وذَكَرَ عُمَرَ فقالَ : فلَمْ أرَ عَبْقَرِياً يَفْرِي فَرِيَّهُ " [انظر تاج العروس مادة عبقر]

وبناء على هذا التعريف للعبقرية انتقد بعض العلماء العقاد لأنه وصف النبي ﷺ بالعبقري فقال د. ناصر بن عبد الكريم العقل " وأهم ما تميزت به الدراسات العقلانية أنها تزعم بأنها درست وناقشت حياة الرسول ﷺ بشتى جوانبها ، قبل النبوة وبعدها ، وأن حصيلة هذه الدراسة تلخَّصت بأنه ﷺ إنسان عبقري فذ ممتاز فحسب ، وأنها لا صلة له بعالَم وقوى غيبية خارج ذاته ، ومن هذا المنطلق يعزون كل ما صدر عنه ﷺ من نشاط علمي وعملي ، ومنه الوحي الذي أنزل عليه من الله، إلى ذاته ﷺ بصفته عبقري فذ ، أو مصلح اجتماعي عظيم ، أو ثائر سياسي محنك ، أو قائد سياسي بطل . أو زعيم ثوري متحرر ، أو مرشد روحي ملهم .. إلخ من الصفات التي تبعده عن معاني الوحي والنبوة والإيمان .

فإن الرسول ﷺ بزعمهم امتاز بهذه الصفات أو بعضها مجردة من المعاني الإيمانية الربانية ، من وحي ونبوة ورسالة ، وهداية . هذا ما تذهب إليه العقلية الحديثة ، حيناً بالتصريح ، وآخر بالتلميح والتعريض .

فهي تهتم بصدر الآية الكريمة ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ وتهمل آخر الآية نفسها ﴿ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [الكهف:١١٠] وأكثر ما اهتمت به المدرسة العقلية من شخص النبي ﷺ، جانب العبقرية ، فهي تريد أن تضيف كل ما قاله أو فعله ﷺ إلى عبقريته الفردية الفذة ، بدعوى أن جانب الوحي والنبوة والرسالة أمور غيبية روحية ، لا تثبت أمام البحث العلمي ، والموضوعية ، ولا قيمة لها في نظر العلم الحديث الذي قذف بها في عالم الأساطير والخرافات.

أما العبقرية ، على حد زعمهم ، فهي صفة إنسانية يقرها العلم ويحترمها ويقدسها ويمكن للمسلمين أن يثبتوها علميًا حسب مقررات العلم الحديث .

وكل ذلك انهزامية ، وضعف إيمان بالله ورسالاته ، وجهل بكتاب الله وسنة رسوله.

وأكبر دليل على ذلك أن غالب مؤلفات العقلية الحديثة تحمل في عناوينها اسم الرسول (محمد) مجرداً دون اعتبار للنبوة والرسالة ويحيدون عن وصفه بالنبوة والرسالة التي هي أهم خصائصه ﷺ. وذلك مثل : (عبقرية محمد) للعقاد " [١]

وقبل أن نُعَقِّب على كلام د. ناصر لابد أن نبيِّن أولاً حكم أفعال النبي ﷺ في التشريع .

حكم أفعال النبي ﷺ في التشريع

يقول ابن حجر : " ما يفعله ﷺ إن كان بياناً لمُجْمَل (القرآن) فحكمه حكم ذلك المُجْمَل وجوباً أو ندباً أو إباحة فان ظهر وجه القربة فللندب وما لم يظهر فيه وجه التقرب فللإباحة وأما تقريره على ما يفعل بحضرته فيدل على الجواز " [٢]

---

(1) أ . د / ناصر بن عبد الكريم العقل " الاتجاهات العقلانية الحديثة " ط ١ ، ٢٠٠١ دار الفضيلة ص ٢٢٣- ٢٢٥ بتصرف

(٣) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري شرح صحيح البخاري " ج ١٣ ص ٢٧٤

ويقسم علماء أصول الفقه أفعال النبي إلى ثلاثة أقسام :

أولها : أفعال النبي ﷺ التي تكون بياناً للشريعة وهي قسمان : أفعال هي بيان لمجملها ، وأفعال فعلها يدل على إباحتها وكلا القسمين يفيد العموم في أحكامه فلا يختص بالنبي ﷺ .

ثانياً : أفعاله ﷺ التي قام الدليل على أنها خاصة به ومن ذلك التزوج بأكثر من أربع زوجات .(١)

ثالثاً : ما صدر عنه ﷺ بمقتضى طبيعته الإنسانية : من قيام وقعود ومشى ونوم وأكل وشرب فليس تشريعاً لأن هذا ليس مصدره رسالته ولكن مصدره إنسانيته . وما صدر عنه بمقتضى الخبرة الإنسانية والحذق والتجارب في الشئون الدنيوية من تجارة أو زراعة أو تنظيم للجيش أو تدبير حربي أو وصف دواء لمرض أو أمثال هذا فليس تشريعاً أيضاً لأنه ليس صادراً عن رسالته إنما صادر عن خبرته الدنيوية وتقديره الشخصي . (٢)

معنى هذا أن أفعال النبي ليست كلها من وحي عبقرية محمد البشرية كما يتهم د. ناصر بن عبد الكريم وغيره العقادَ ، وليست كلها وحياً إلهياً كما يزعم السلفيون النصيون إنما فيها هذا وذاك .

والحقيقة أن العقاد لا ينكر نبوة محمد ﷺ ووحي الله تعالى إليه بالرسالة الخاتمة، وإن كان يذكر اسم الرسول (محمد) مجرداً في الغالب ، إنما يجهد في إبراز مواهب النبي ﷺ الخاصة أو قدراته كإنسان قبل أن يكون نبياً موحى إليه ، وأغلب كلام العقاد عن النبي ﷺ خَلْط بين عبقرية محمد كإنسان كامل وبين نبوته كرسول من رسل الله

---

(١) محمد أبو زهرة " أصول الفقه " ص ١٠٦

(٢) عبد الوهاب خلاف " علم أصول الفقه " ص ٤٢

صنعه الله على عينه واصطفاه لنفسه كما قال الله تعالى عن سيدنا موسى ﴿ وَلِتُصْنَعَ على عَيْنِى ﴾ [طه : ٣٩] ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ [طه : ٤١] إذن وصف النبوة يغني عن أي وصف آخر لأن وصف النبوة إذا وصف به إنسان فيعني أنه إنسان كامل الخَلْق والخُلُق اصطفاه ربه وعصمه ورعاه وهيَّأه ليحمل رسالته ، وإذا كان وصف العبقرية أمر كسبي نسبي يمكن لأي إنسان بجده أن يحصل عليه إذا أخلص لمبدأ آمن به أو قام بأعمال عظيمة لقومه فإن وصف النبوة اصطفاء إلهي مطلق لا يمكن أن يحصل عليه بشر بسعيه .

ولقد كتب العقاد عن عباقرة كثيرين ليسوا أنبياء ولا مؤمنين بل كان بعضهم ملحدين فهل يستوى أولئك وهؤلاء بخاتم الأنبياء والمرسلين إن الخطأ الذي وقع فيه العقاد وصرح به في مقدمة الكتاب أنه سار على نهج الكتاب الغربيين مثل " كارليل " الذين كتبوا عن العباقرة والمصلحين الذين أثَّروا في البشرية وذكروا من بينهم رسول الله ﷺ ولم يفطن العقاد ، وهو الذكي الفطن ، أن النبي ﷺ إذا كان بالنسبة لغير المسلمين عبقري مصلح فإنه بالنسبة لنا نبي مرسل .

يقول د. محمد سعيد رمضان : " إن المسلم لا ينبغي أن يحاول فهم حياة رسول الله ﷺ على أنه عبقري عظيم أو قائد خطير أو داهية محنَّك . فمثل هذه المحاولة ليست إلا معاندة أو معابثة للحقائق الكبرى التي تزخر بها حياة محمد ﷺ . فلقد أثبتت هذه الحقائق الجلية الناصعة أن النبي ﷺ كان متصفاً بكل صفات السمو والكمال الخلقي والعقلي والنفسي ، ولكن كل ذلك كان ينبع من حقيقة واحدة كبرى في حياته ﷺ ألا وهي أنه نبي مرسل من قِبَل الله عزَّ وجلَّ . وإن من العبث الغريب أن نضع الفروع في موضع الأصل ثم نتجاهل وجود الأصل مطلقاً ! ولا ريب أن الردَّ على ذلك لا يكون إلا بلفت النظر إلى الأصل . بل إلى الأصل وحده . (١)

---

(1) د. محمد سعيد رمضان البوطي " فقه السيرة النبوية " مرجع سابق ص ١٣ .

فالنبوة إذن اصطفاء وهبة إلهية لا اجتهاد وتجربة بشرية ، فلا ينال الإنسان النبوة بالجهد الفكري أو الترقي الروحي والأخلاقي ولا عبرة في حصولها للقيم الدنيوية والاعتبارات المادية فالله تعالى قد اختص بالنبوة من شاء في الوقت الذي شاء وفقاً لحكمته وعلمه ورحمته ، قال الله تعالى : ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج:٧٥] فالفضل في أمر النبوة لله تعالى من قبل ومن بعد ﴿ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء:١١٣] .

وهذا ما أغفله العقاد أو كاد في هذا الكتاب إذ نسب كل أعمال النبي لشخصه كإنسان عبقري وليس لأنه نبي مصطفى ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النَّجم:٣ ،٤] ولا يعفيه من ذلك هدفه النبيل في الدفاع عن النبي ﷺ وتبرئته من التهم التي يرميه بعض المغرضين الغربيين بها مستخدماً في دفاعه نفس معارفهم ومنطقهم ومقارناً النبي ﷺ ومواقفه ببعض رجالهم العباقرة ومواقف شعوبهم المشهودة ، وإن كان هذا المنهج يناسب الأجانب الغربيين ومن تأثَّر بهم من المسلمين فإنه لا يناسب أغلب المسلمين .

يقول الشيخ صالح بن سعد اللحيدان : " لو درس العقاد حياته ﷺ قبل البعثة وقال إنه عبقري قلنا صواب ، لكنه بعد ذلك نبي ورسول ولا تكتسب صفة العبقرية شيئاً يذكر في الميزان ، لا تكتسب أي صفة لمن هو نبي أو رسول إلا لإخضاع النبوة والرسالة لحال أو حالات العبقرية ، فإن كان كذلك فهي الانحدار نحو هاوية لها قعر بعيد . (١)

---

(1) الشيخ صالح بن سعد اللحيدان " كتاب نقد آراء ومرويات العلماء والمؤرخين على ضوء العبقريات " مرجع سابق ص ٢٠ .

والعقاد نفسه يعترف بهذه الحقيقة الجليَّة فيقول : " خلق محمد بن عبد الله ﷺ ليكون رسولاً مبشراً بدين، وإلا فلأي شيء خُلِقَ، ولأي عمل من أعمال هذه الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات، وكل هاتيك المناقب والصفات ؟ ." (١)

من دلائل النبوة قبل البعثة

تذكر كتب السيرة كثيراً من دلائل النبوة قبل البعثة ، منها الصحيح ومنها الضعيف المبالغ فيه ، ولقد أعرض العقاد عن الكلام عن دلائل النبوة قبل البعثة معللاً ذلك بأن هذه الدلائل لم يكن لها تأثير على من آمن بالنبي ﷺ بعد ذلك .

يقول العقاد : " والمؤرخون يجهدون أقلامهم غاية الجهد في استقصاء بشائر الرسالة المحمدية ... فما من بشارة من تلك البشائر كان لها أثر في إقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبي ﷺ بالرسالة ، أو كان ثبوت الإسلام متوقفاً عليها .

لأن الذين شهدوا العلامات المزعومة يوم الميلاد، لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤداها، ولا عرفوا أنها علامة على شيء أو على رسالة ستأتي بعد أربعين سنة ؛ ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا إلى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة ، لم يشهدوا بشارة واحدة منها، ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا إليه . وقد ولد مع النبي ﷺ أطفال كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها، فإذا جاز للمصدق أن ينسبها إلى مولده جاز للمكابر أن ينسبها إلى مولد غيره . ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين إلا بعد عشرات السنين .. يوم تأتى الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وإنكار المنكرين . " (٢)

---

(1) عباس محمود العقاد " عبقرية محمد " مرجع سابق ص ١٨

(2) عباس محمود العقاد " عبقرية محمد " مرجع سابق ص ١٨، ١٩

وهكذا يستبعد أصحاب المدرسة العقلية كل ما يخالف المألوف وإن دخل في باب المعجزات الإلهية الثابتة ، ولا يرون فائدة لها بل ربما كانت مدعاة لتشكيك المغرضين في الإسلام ورسوله ، وفي هذا نظر فقد كان لدلائل النبوة ، وهي مجال حديثنا الآن ، التي تأكدت صحة بعضها أهمية كبيرة فقد كانت تمهيداً لبعثته وبياناً لرعاية الله له وحفظه منذ ولادته ، وعلامات على طريق نبوته حتى إذا ما أعلن دعوته وتذاكر الناس سيرته الأولى وجدوا فيها من الدلائل على صحة هذه الدعوة ما يدفعهم للإيمان بها ، فالذي يدفع الإنسان إلى تصديق شيء غيبي إيمانه بدلائل مادية تدل على صدق الداعي وما يؤكد أنه كان معدّاً من قبل ذلك لأداء هذه المهمة وليس ما جاء به حالة طارئة تلبسته تناقض ما كان عليه من قبل .

وهم قد تأثروا في هذا بالمستشرقين وبدائرة المعارف البريطانية تحديداً التي اعتمد محرروها على كتابات المستشرقين وبخاصة آراء " مونتقمري وات " التي تؤدي " إلى نتيجة مفادها أن النبي ﷺ تأثر بالبيئة من حوله وبأفكار ورقة بن نوفل والمسيحية واليهودية، وحاول وات جهده إظهار مواطن يزعم أنه انعكس فيها تأثر الرسول ﷺ بما حوله على الإسلام؛ ليثبت أنه جاء به من تلقاء نفسه.

يلقي وات بظلال المنهج العلماني التشكيكي الذي لا يؤمن بالغيب ولا بالمعجزات على السيرة النبوية، فهو ينكر حدوث أي شيء خارق للعادة مثل حادثة شق صدره ﷺ وحدوث الوحي وغيرها من الآثار الثابتة عن النبي ﷺ، حيث يقول بشأنها: "إن هناك العديد من القصص ذات الطابع الديني يكاد يكون من المتيقَّن أنها ليست حقيقة من وجهة نظر المؤرخ العلماني الواقعية " [1]

يعمد وات إلى المنهج المادي، ويذكر أن المؤرخ أكثر إدراكا للعوامل المادية

---

(1) مونتقمري وات، Muhammad at Mecca، ص ٣٣.

الكامنة وراء التاريخ، وبأن مؤرخ منتصف القرن العشرين سيثير أسئلة كثيرة عن الجذور الاقتصادية والاجتماعية والسياسة للحركة التي بدأها محمد، من غير أن يهمل أو يقلل من شأن الجوانب العقدية[1]، ولذا نراه يعزو ظهور الدعوة إلى الحالة الاجتماعية والاقتصادية التي سادت في مجتمعه ﷺ، ويفسر الغزوات الإسلامية من هذا المنطلق.

وسوف نذكر بعض الأدلة التي ثبتت صحتها من بشائر النبوة .

أولاً : خروج نور عند ولادته ﷺ

عن العرباض بن سارية الفزاري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول " إنِّي عندَ اللهِ مَكتوبٌ بخاتَمِ النَّبيِّينَ وإنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ في طينتِه وسأُخبِرُكم بأوَّلِ ذلك : دعوةُ أبي إبراهيمَ وبِشارةُ عيسى ورؤيا أمِّي الَّتي رأَتْ حينَ وضَعَتْني أنَّه خرَج منها نورٌ أضاءَتْ لها منه قصورُ الشَّامِ " [صححه الألباني وغيره] .

وهذا الحديث له شواهد من القرآن تؤكده أما أنه ﷺ مكتوب عند الله بخاتم النبيين فهذا يندرج تحت الركن السادس من أركان الإيمان " الإيمان بالقدر خيره وشر ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ ﴾ [الأنعام : ٥٩] وعن عمران بن حُصين، عن النبيِّ ﷺ قال كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ " [صحيح البخاري]

أما رؤية أم النبي ﷺ أنه خرج منها نور فهذا غير مستبعد وقد صحَّ الحديث فيه وقد وصف الله تعالى مجيئه بالنور : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ [المائدة:١٥] وقال تعالى أنه أنزل نوراً معه ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [التغابن:٨] وهذا لا يتعارض مع كون النبي بشراً وأنه من

---

(1) مونتقمري وات، Muhammad at Mecca، ص ٣٣.

ولد آدم ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [فصّلت:٦] وجاء تقرير بشريته بأداة الحصر والقصر " إنما " وذكر الله تعالى النور مصاحباً لمجيئه إنما هو بشارة بمقدمه، وبأن رسالته هادية للعالمين .

ثانياً : النبي ﷺ دعوة إبراهيم وبشارة عيسى

أما دعوة إبراهيم فيقول تعالى على لسان سيدنا إبراهيم ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٩] ويقول تعالى على لسان سيدنا عيسى : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصَّف : ٦] .

وقد وردت روايات تفيد بأن قصر كسرى ارتجف عند مولد الرسول ﷺ وسقطت منه أربع عشرة شرفة ، وخمدت نار فارس، وغاضت بحيرة ساوة .. ولكن لم يصح من ذلك شيء .

ثالثاً : البركة العامة في بيت مرضعته

حليمة السعدية ومالها: فليس بمستبعد حتى يوقع الله تعالى محبة محمد ﷺ في قلب حليمة وقبيلتها فيعتنوا به ويسروا برؤيته ويشيع عنهم ذلك حتى إذا ما دعا إلى الله وتذاكروا سيرته يجدونها سيرة إنسان مبارك منذ ولادته .

وقد أجمع رواة السيرة أن بادية بني سعد كانت تعاني إذ ذاك سنة مجدبة جفَّ فيها الضرع ويبس الزرع ، فما هو إلا أن صار محمد ﷺ في منزل حليمة حتى عادت منازل حليمة من حول خبائها مخضرة فكانت أغنامها تروح منها عائدة إلى الدار شباعاً ممتلئة الضرع . (١)

رابعاً : شق صدره ﷺ :

شَرَح الله تعالى صَدْر النبي ﷺ شَرْحاً ماديّاً ، شَقُّ الصَّدْر ، وشَرْحاً مَعْنَويّاً .

---

(1) د. محمد سعيد رمضان البوطي " فقه السيرة النبوية " مرجع سابق ص ٧١ .

أما شَقُّ الصَّدْر فقد وقع للنبي ﷺ مرتين الأولى في صغره فعن أنس بن مالك أنه قال : " أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ أتاهُ جبريلُ ﷺ وَهوَ يلعَبُ معَ الغلمانِ ، فأخذَهُ فصرعَهُ فشقَّ عن قلبِهِ ، فاستَخرجَ القلبَ ، فاستَخرجَ منهُ علَقَةً ، فقالَ : هذا حظُّ الشَّيطانِ منكَ ، ثمَّ غسلَهُ في طَستٍ من ذَهَبٍ بماءِ زمزمَ ، ثمَّ لأَمَهُ ، ثمَّ أعادَهُ في مَكانِهِ ... قالَ أنسٌ : وقد كنتُ أرى أثرَ ذلِكَ المِخيَطِ في صدرِهِ " [صحيح مسلم] .

ويعلق الشيخ محمد الغزالي على حادثة شق الصدر فيقول : " وشيء واحد هو الذي نستطيع استنتاجه من هذه الآثار أن بشراً ممتازاً كمحمد لا تدعه العناية الإلهية غرضاً للوساوس الصغيرة التي تناوش غيره من سائر الناس فإذا كانت للشر " موجات " تملأ الآفاق ، وكانت هناك تسرع إلى التقاطها والتأثر بها فقلوب النبيين – بتولي الله لها – لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة ولا تهتز لها . وبذلك يكون جهد المرسلين في " متابعة الترقي " لا في " مقاومة التدلي " وفي تطهير العامة من المنكر لا في التطهر منه ، فقد عافاهم الله من لوثاته . (١)

وإنا نرى أن ذلك أحد وسائل العصمة التي حفظ الله تعالى بها أنبياءه قبل بعثتهم . وقد فسر بعض المفسرين قوله تعالى (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) [الشرح:١] بحادثة شق الصدر هذه .

كما أعان الله تعالى النبي ﷺ على قرينه من الجن فأسلم فلا يأمره إلا بخير فعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ " ما منكُم من أحدٍ إلا وقد وُكِّلَ بهِ قرينُهُ منَ الجنِّ قالوا : وإيَّاكَ يا رسولَ اللَّهِ ؟ قال : وإيَّايَ إلا أنَّ اللَّهَ أعانَني علَيهِ فأسلَمَ فلا يأمرُني إلا بخيرٍ" [صحيح مسلم]

خامساً : بحيرى الراهب واستدلاله على نبوة محمد ﷺ :

لما بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة ارتحل به أبو طالب تاجرًا إلى الشام، حتى وصل إلى بُصْرَى، وكان في هذا البلد راهب عرف بَبحِيرَى ، وعن هذا اللقاء يقول أبو

---

(1) محمد الغزالي " فقه السيرة " دار الشروق ص ٥١

موسى الأشعري : " الْتِقَاؤُهُ بالرَّاهِبِ ، بَحِيرَى الذي تَفَرَّسَ فيه ورأى مَعَالِمَ النُّبُوَّةِ في وجهِه وبينَ كَتِفَيْهِ ، فلما سأل أبا طالبٍ : ما هذا الغلامُ منكَ ؟ قال : ابْنِي ، قال : ما يَنْبَغِي أن يكونَ أَبُوهُ حَيًّا ! قال : فإنه ابنُ أَخِي مات أَبُوهُ وأُمُّهُ حُبْلَى به . قال صَدَقْتَ، ارْجِعْ به إلى بَلَدِكَ واحْذَرْ عليه يَهُودَ. " [صححه الألباني]

وهذا الخبر ليس بمستبعد فقد ذكر الله تعالى أن صفات النبي مذكورة عند اليهود والنصارى في كتبهم ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٤٦]

وإذا كان عبد الله بن سلام أحد أحبار اليهود قد عرف النبي ﷺ بصفاته فلا يستبعد أن يعرفه بحيرا الراهب وقد بشر نبيه عيسى به (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ) [الأعراف:١٥٧]

سادساً : خاتم النبوة :

خاتم النبوة هو أحد علامات ودلائل نبوته ﷺ وكان من علاماته التي كان أهل الكتاب يعرفونه بها وهو عبارة عن قطعة صغيرة من اللحم بارزة في جسده الشريف عند كتفه الأيسر مقدار بيضة الحمام ، وقد رآه بعض الصحابة ووصفوه .

عَنْ سِمَاكٍ قَالَ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ سَمُرَةَ قَالَ رَأَيْتُ خَاتَمًا فِي ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَأَنَّهُ بَيْضَةُ حَمَامٍ " [صحيح مسلم]

عَنِ الْجَعْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، قَالَ : سَمِعْتُ السَّائِبَ بْنَ يَزِيدَ ، يَقُولُ : ذَهَبَتْ بِي خَالَتِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ ابْنَ أُخْتِي وَجِعٌ ، فَمَسَحَ رَأْسِي ، وَدَعَا لِي بِالْبَرَكَةِ ، وَتَوَضَّأَ ، فَشَرِبْتُ مِنْ وَضُوئِهِ ، وَقُمْتُ خَلْفَ ظَهْرِهِ ، فَنَظَرْتُ إِلَى الْخَاتَمِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ مِثْلُ زِرِّ الْحَجَلَةِ (بيضة طائر يسمى الحَجَلَة) "[متفق عليه]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَرْجِسَ قَالَ : رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ ، وَأَكَلْتُ مِنْ طَعَامِهِ ، وَشَرِبْتُ مِنْ شَرَابِهِ ، وَرَأَيْتُ خَاتَمَ النُّبُوَّةِ فِي نُغْضِ كَتِفِهِ الْيُسْرَى ، كَأَنَّهُ جَمْعُ خِيلانٍ

(جَمْعُ خال وهو الشامةُ في الجَسَد) سُودٍ ، كَأَنَّهَا ثآلِيلُ هذا (جمع الثُّؤْلُول وهو بَثْر صغير صُلب مستدير ، يظهر على الجلد كالحِمَّصة أَو دونَها) [صحيح مسلم]

فهذه بعض الدلائل صحيحة السند التي سبقت مبعثه ﷺ وقد ذكر أهل السير أموراً أخرى ضعف أكثرها المحدثون، وتساهل في روايتها آخرون، جرياً على التوسع في رواية أخبار السيرة لعدم تعلقها بالأحكام والشرائع، ولكن في ما ذكر كفاية . وقد كانت هناك دلائل وأمارات أخرى تمهد لنبوة سيدنا محمد ﷺ مثل: خلقه العظيم، وصدقه وأمانته التي انفرد بها عن شباب زمانه، وتركه شرك الجاهلية وفحشها وفسقها، وكذا انعزاله قومه وترك آلهتهم والتعبد في غار حراء حيث الخلوة بحثاً عن الحق المبين .

لماذا بعث الله خاتم المرسلين من العرب ؟

ذكر العقاد في سبب اختيار الله تعالى النبي من العرب فقال : " أمة ليست بذات دولة ولكنها تتأهب لإقامة دولة ، هي أمة العرب وقد تيقظت لوجودها وشعرت بمكانتها ، كما شعرت بالخطر عليها وبمواضع النقص منها . في أيديها تجارة العالمين كلها .. "

وهذا الكلام فضلاً عن عدم صحته ، كما بينا في موضعه ، فإنه لا يقوم دليلاً حقيقياً على اختيار الله تعالى النبي من العرب .

بداية لا بد أن نقرر أن الله تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣]

كذلك الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته ومن يصلح لها من خلقه .

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٣]

لكن نحن نحاول أن نبحث عن الحكمة ونستكنه سر هذا الاختيار .

ونبدأ بالإجابة عن السؤال الأول ، بماذا امتاز العرب قوم خاتم الرسل الكرام ، فَفَضَلوا به غيرهم من الأقوام ، حتى استعدوا به لهذا الإصلاح الروحي المدني العام، الذي اشتمل عليه دين الإسلام ، على ما طرأ عليهم من الأمية وعبادة الأصنام ، وما أحدثت فيهم غلبة البداوة من التفرق والانقسام ؟

الجواب : كانت العرب ممتازة باستقلال الفكر وسعة الحرية الشخصية ، أيام كانت الأمم تَرْسُفُ في عبودية الرياستين الدينية والدنيوية ، محظورًا عليها أن تفهم غير ما يلقنها الكهنة ورجال الدين من الأحكام الدينية ، وأن تخالفهم في مسألة عقلية أو كونية أو أدبية ، كما حظرت عليها حرية التصرفات المدنية والمالية .

كانت العرب ممتازة باستقلال الإرادة في جميع الأعمال ، أيام كانت الأمم مذللة مُسَخَّرة للملوك والنبلاء المالكين للرقاب والأموال ، يستخدمونها كما يستخدمون البهائم، ويُصرفونها كما يصرفون السوائم لا رأي لها معهم في سلم ولا حرب ، ولا إرادة لها في عمل ولا كسب .

كانت العرب ممتازة بعزة النفس ، وشدة البأس ، وقوة الأبدان ، وجرأة الجنان، أيام كانت الأمم مؤلفة من رؤساء أفسدهم الإسراف في الترف ، ومرءوسين أضعفهم البؤس والشظف وسادة أبطرهم بغيُ الاستبداد ، ومسودين أذلهم قهر الاستعباد .

كانت العرب ممتازة بكثير من الفضائل الموروثة والكسبية . كقِرَى الضيوف ، وإغاثة الملهوف ، والنجدة والإباء ، والسخاء ، والإيثار ، وحماية اللاجئ ، وحرمة الجار . أيام كانت الأمم مرهقة بالأثرة والأنانية والأنين من ثقل الضرائب والأتاوى الأميرية ، ورؤساؤها منغمسين في الشهوات البهيمية ، وفساد الأخلاق قد عمَّ الراعي والرعية .(1)

---

(1) رشيد رضا من مقدمة " رسالة في ذكرى المولد النبوي الشريف " مجلة النار ج ١٩ ص ٤٠٨

لقد كانت الإمبراطوريات المعاصرة للإسلام ، الصين والفرس والروم ، قد استنفدت مقومات نهضتها وبقاء سيادتها ، ولم تعد صالحة لحمل رسالة آخر الزمان بعدما فسدت فطرة حكامها وانتكست أخلاقهم وتفشى في شعوبها الوهن : حب الدنيا وكراهية الموت ، وشاع فيهم خنا القول والفعل ، والإسراف في الترف واللهو .

أما اصطفاء الله لكنانة الشيخ الجليل ، من سلالة نبيه الذبيح إسماعيل ، فيفسره ما كانت تحفظه العرب من أخبار كرمه ونبله ، ومنها أنه كان على سنة جده إبراهيم الخليل لا يأكل وحده . وقد نقل الحافظ في شرح البخاري أنهم كانوا يحجون إليه لعلمه وفضله . ومما يؤثر عنه من الحِكَم الجلية ، كما روي في السيرة الحلبية : رب صورة تخالف المخبرة ، قد غرت بجمالها ، واختبر قبح فعالها ، فاحذر الصور ، واطلب الخبر . فهذا دليل على ما وصف به من العلم والحكمة ، وأما حج العرب إليه فإنه دليل على أنه كان بمثابة التعارف ،ومعقد رابطة الاجتماع والتآلف.

لماذا اصطفى الله قريشاً من العرب ؟

قال العقاد عن قبيلة النبي :" قبيلة في تلك الأمة في تلك المدينة لها شعبتان : أحدهما من أصحاب الترف والطمع واستبقاء ما هو قائم كما كان قائماً على هواها.

والأخرى من أصحاب التقوى والسماحة والتوسط بين القوي الذي يجور ويطغى ومقام الضعيف الذي يحتمل الأذى ... "

وأما اصطفاء الله تعالى لقريش الميامين الغُرُّ ، وهم ذرية فهر بن مالك ، وقيل : جده النضر . فقد كان بما آتاهم الله من المناقب العِظَام ، ولا سيما بعد سكنى مكة وخدمة المسجد الحرام ؛ إذ كانوا أصرح ولد إسماعيل أنسابًا ، وأشرفهم أحسابًا وأعلاهم آدابًا ، وأفصحهم ألسنة ، وهم الممهدون لجمع الكلمة . فقد نقل أهل السير أن مالك بن النضر كان ملك العرب .

وأفضل من ذلك كله ما وُفِّقُوا له في حداثة الرسول من التحالف الذي عُرِف بحلف الفضول ؛ إذ تعاقدوا وتعاهدوا أن لا يجدوا بمكة مظلومًا إلا قاموا معه ، وكانوا عونًا له على من ظلمه ، إلى أن تُرَدَّ مظلمته . وفي حديث الزبير بن العوام عند الطبراني، ومثله حديث أم هانئ في معجمه الأوسط كتاريخ البخاري " فضَّل الله قريشًا بسبع خصال : فضَّلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبد الله إلا قرشيٌّ وفضَّلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون . وفضَّلهم بأنه نزل فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين ، وهي ﴿ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ ﴾ [قريش : ١] وفضلهم بأن فيهم النبوة والخلافة والحجابة والسقاية) .

كان ذلك كله من ارتقاء قريش واستعداد العرب للإسلام ، ولكن هذه القوى المعنوية كلها وجهت لمعاداته عليه أفضل الصلاة والسلام .

اصطفاء الله تعالى لبني هاشم

يقول العقاد عن بني هاشم : " هو بيت عبد المطلب من صميم قريش ومن ذؤابتها العليا .. ورأس هذا البيت ، عبد المطلب ، رجل شجاع قوي الخلق قوي الإيمان فيما آمن به ... "

ولقد رددنا على العقاد بالنسبة للعبارة الأخيرة في موضعه أما اصطفاء الله تعالى لبني هاشم ، فقد كان بما امتازوا به من الفضائل والمكارم ، فقد روى أبو نعيم من حديث المستورد الفهري رضي الله عنه : " إن فيهم خصالاً أربعًا : إنهم أصلح الناس عند فتنة ، وأسرعهم إقامة بعد مصيبة . وأوشكهم كَرَّةً بعد فرة ، وخيرهم لمسكين ويتيم، وأمنعهم من ظلم الملوك " . وكان جدهم هاشم صاحب إيلاف قريش ، الذي أخذ لهم العهد من قيصر الروم على حمايتهم في رحلة الصيف ، وروي أنه هو الذي سَنَّ الرحلتين ، وأخذ العهود بها من الحكومتين ، حكومة اليمن العربية ، وحكومة الشام الرومية ، فاتسعت بهما معيشة قريش ، وأمنوا في تجارتهم من كل خوف ، وقد

امتن الله عليهم بذلك في القرآن ، بما عُدت به التجارة من أشرف أعمال الإنسانية ، وإنما أطلق لقب هاشم على عمرو بن عبد مناف ؛ لأنه أول من هشَّم الثريد للمسنتين العجاف ، وكان يُشبع منه كل عام أهل الموسم كافة ، كما أشبع منه قومه في سنة القحط والمجاعة ، على أن مائدته كانت منصوبة لا تُرْفَع في السراء ولا في الضراء ، وزاد عليه ولده عبد المطلب فكان يُطعم الوحش وطير السماء ، وكان أول من تحنث بغار حراء ، وروى أنه حرَّم الخمر على نفسه، وجعل ماء زمزم للشرب فحرَّم أن يُغْتَسَل به .

فجملة ما امتاز به آله ﷺ على سائر قومه الأخلاق العلية ، والفواضل والفضائل النفسية ، وكانوا أبعد من سائر قريش عن الكِبْر والأَثَرَة والأمور الحربية ، ولذلك غلبوا على الرياسة حتى بعد الإسلام ، وحكمة ذلك ظاهرة لأولي الأحلام ، فهو أنفى للشُّبَه عن رسالته عليه أفضل الصلاة والسلام . (1)

وفي هذا يقول النبي ﷺ : " أنا محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المطلبِ ، إنَّ اللهَ تعالى خلق الخلْقَ فجعلني في خيرِهم ، ثم جعلهم فرقتَين ، فجعلَني في خيرِهم فرقةً ، ثم جعلهم قبائلَ ، فجعلني في خيرِهم قبيلةً ، ثم جعلهم بيوتًا ، فجعلني في خيرهم بيتًا ، فأنا خيركُم بيتًا ، وأنا خيرُكم نفسًا . " [صحيح الجامع]

ويقول : " إنَّ اللَّهَ اصطفَى مِن ولدِ إبراهيمَ إسماعيلَ ، واصطفَى مِن بَني إسماعيلَ بَني كنانةَ ، واصطفَى مِن بَني كنانةَ قُرَيْشًا ، واصطفَى مِن قُرَيْشٍ بَني هاشمٍ ، واصطفاني مِن بَني هاشمٍ " [صحيح ابن حبان والترمذي وغيرهما]

صفات النبي ﷺ الخلْقية الظاهرة كما جاء في صحيح السنة

ذكر العقاد كثيراً من الصفات التي وصف بها الصحابة النبي وقد خرَّجنا هذه الأحاديث في موضعها وقد اعتمد العقاد غالباً على حديث ضعيف حديث أخرجه ابن

---

(1) رشيد رضا من مقدمة " رسالة في ذكرى المولد النبوي الشريف " مجلة النار ج ١٩ ص ٤٠٨

سعد والتِّرمِذي في الشمائل والبيهقي في الدلائل عن هند بن أبي هالة التميمي ربيب رسول الله ﷺ أمه : خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، خلف عليها رسول الله ﷺ بعد أبي هالة .

يقول الشيخ صالح بن سعد اللحيدان عن كلام العقاد في وصف النبي : " وقد رأيته من حيث بيان شخصية النبي من الناحية الخَلْقية زلَّ لأنه لم يعوِّل على أصول صحيحة في صفاته ولا يعذر لكونه ليس محدثاً ، ولا يعذر كذلك لأنه يريد فقط التحليل والدرس والاستنساخ لا يعذر لأنه ﷺ يختلف عن غيره لأن الأمهات كتبت وصفة بنص صحيح كأنك تراه ." (١)

وسوف نذكر الأحاديث الصحيحة التي ذكرت صفات النبي ﷺ الخَلْقِية الظاهرة وعن أنس أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَصِفُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ " كَانَ رَبْعَةً مِنْ الْقَوْمِ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ وَلا بِالْقَصِيرِ أَزْهَرَ اللَّوْنِ (٢) لَيْسَ بِأَبْيَضَ أَمْهَقَ (٣) وَلا آدَمَ (٤) لَيْسَ بِجَعْدٍ (٥) قَطَطٍ وَلا سَبْطٍ (٦) رَجِلٍ (٧) أُنْزِلَ عَلَيْهِ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ فَلَبِثَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ (٨) يُنْزَلُ عَلَيْهِ وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ وَقُبِضَ وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعَرَةً بَيْضَاءَ قَالَ رَبِيعَةُ فَرَأَيْتُ شَعَرًا مِنْ شَعَرِهِ فَإِذَا هُوَ أَحْمَرُ فَسَأَلْتُ فَقِيلَ احْمَرَّ مِنْ الطِّيبِ " [صحيح البخاري]

---

(1) الشيخ صالح بن سعد اللحيدان " كتاب نقد آراء ومرويات العلماء والمؤرخين على ضوء العبقريات " مرجع سابق ص ١٨

(2) أزهر اللون : أبيض مشرب بحمرة .

(3) أمهق : خالص البياض .

(4) آدم : شديد السمرة .

(5) بجعد : متكسر الشعر .

(6) قطط : شديد الجعودة .

(7) رجل : منسرح الشعر .

(8) فلبث بمكة عشر سنين : أي بعد الأمر بالجهر بالدعوة

عَنْ أَنَسٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَزْهَرَ اللَّوْنِ كَأَنَّ عَرَقَهُ اللُّؤْلُؤُ إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ (١) وَلا مَسِسْتُ دِيبَاجَةً (٢) وَلا حَرِيرَةً أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلا شَمِمْتُ مِسْكَةً وَلا عَنْبَرَةً أَطْيَبَ مِنْ رَائِحَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ " [صحيح مسلم]

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه: كَانَ رسولُ الله ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ وَكُنَّا نَعْرِفُ ذلِكَ مِنْهُ " [متفق عليه]

عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ سُئِلَ الْبَرَاءُ أَكَانَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ السَّيْفِ قَالَ لا بَلْ مِثْلَ الْقَمَرِ " [رواه البخاري]

عن أبي هريرة قال : " كانَ أَحْسَنَ النَّاسِ صِفَةٍ وَأَجْمَلَهَا كانَ رَبْعَةً إِلَى الطُّولِ مَا هُوَ بَعِيدَ مَا بَيْنَ المَنْكِبَيْنِ أَسِيلَ الخَدَّيْنِ (٣) شَدِيدَ سَوَادِ الشَّعْرِ أَكْحَلَ الْعَيْنَيْنِ أَهْدَبَ الأَشْفَارِ (٤) إِذَا وَطِيءَ بِقَدَمِهِ وَطِيءَ بِكُلِّهَا لَيْسَ لَهُ أَخْمَصُ (٥) إِذَا وَضَعَ رِدَاءَهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ فَكأَنَّهُ سَبِيكَةُ فِضَّةٍ وَإِذَا ضَحِكَ يَتَلأْلأُ " [رواه البيهقي وحسنه الألباني]

عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كُنْتُ أَرَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُسَلِّمُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ حَتَّى أَرَى بَيَاضَ خَدِّهِ " [صحيح مسلم]

عَنْ يَزِيدَ الْفَارِسِيُّ قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ زَمَنَ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى الْبَصْرَةِ ، قَالَ : فَقُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ : إِنِّي قَدْ رَأَيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : " إِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنَّ يَتَشَبَّهَ بِى فَمَنْ رَآنِى فِى النَّوْمِ فَقَدْ رَآنِى ". فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ لَنَا هَذَا الرَّجُلَ الَّذِى رَأَيْتَ قَالَ قُلْتُ نَعَمْ رَأَيْتُ رَجُلاً بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ

---

(1) تَكَفَّأَ: كأنما ينحط في صبب .

(2) دِيبَاجَةً: الحرير الرقيق

(3) قليلا اللحم رقيقا الجلد

(4) أهدب الأشفار : أي طويل شعر العينين .

(5) أي لا يلتصق قدمه بالأرض عند الوطء .

جِسْمُهُ وَلَحْمُهُ أَسْمَرُ إِلَى الْبَيَاضِ حَسَنُ الْمَضْحَكِ أَكْحَلُ الْعَيْنَيْنِ جَمِيلُ دَوَائِرِ الْوَجْهِ قَدْ مَلأَتْ لِحْيَتُهُ مِنْ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ حَتَّى كَادَتْ تَمْلأُ نَحْرَهُ . قَالَ عَوْفٌ لاَ أَدْرِى مَا كَانَ مَعَ هَذَا مِنَ النَّعْتِ. قَالَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَوْ رَأَيْتَهُ فِى الْيَقَظَةِ مَا اسْتَطَعْتَ أَنْ تَنْعَتَهُ فَوْقَ هَذَا." [صحيح رواه أحمد]

عَنْ عَلِيٍّ بن أبي طالب قَالَ : " لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالطَّوِيلِ وَلا بِالْقَصِيرِ شَثْنَ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ ضَخْمَ الرَّأْسِ ضَخْمَ الْكَرَادِيسِ طَوِيلَ الْمَسْرُبَةِ إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ تَكَفُّؤًا كَأَنَّمَا انْحَطَّ مِنْ صَبَبٍ لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ " [صحيح الترمذي]

عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ قَالَ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ سَمُرَةَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ضَلِيعَ الْفَمِ أَشْكَلَ الْعَيْنِ مَنْهُوسَ الْعَقِبَيْنِ قَالَ قُلْتُ لِسِمَاكٍ مَا ضَلِيعُ الْفَمِ قَالَ عَظِيمُ الْفَمِ قَالَ قُلْتُ مَا أَشْكَلُ الْعَيْنِ قَالَ طَوِيلُ شَقِّ الْعَيْنِ قَالَ قُلْتُ مَا مَنْهُوسُ الْعَقِبِ قَالَ قَلِيلُ لَحْمِ الْعَقِبِ " [صحيح مسلم]

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ مَا مَسِسْتُ حَرِيرًا وَلا دِيبَاجًا أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا شَمِمْتُ رِيحًا قَطُّ أَوْ عَرْفًا قَطُّ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ أَوْ عَرْفِ النَّبِيِّ ﷺ " [صحيح البخاري]

وعن أَبِي جُحَيْفَةَ قَالَ كَانَ يَمُرُّ مِنْ وَرَائِهَا الْمَرْأَةُ وَقَامَ النَّاسُ فَجَعَلُوا يَأْخُذُونَ يَدَيْهِ فَيَمْسَحُونَ بِهَا وُجُوهَهُمْ قَالَ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ فَوَضَعْتُهَا عَلَى وَجْهِي فَإِذَا هِيَ أَبْرَدُ مِنْ الثَّلْجِ وَأَطْيَبُ رَائِحَةً مِنْ الْمِسْكِ " [أخرجه البخاري]

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ لَقِيتُ مُوسَى قَالَ فَنَعَتَهُ فَإِذَا رَجُلٌ حَسِبْتُهُ قَالَ مُضْطَرِبٌ رَجِلُ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ قَالَ وَلَقِيتُ عِيسَى فَنَعَتَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ رَبْعَةٌ أَحْمَرُ كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ يَعْنِي الْحَمَّامَ وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِهِ بِهِ "
[متفق عليه]

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ كَانَ فِي سَاقَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُمُوشَةٌ وَكَانَ لا يَضْحَكُ إِلا تَبَسُّمًا وَكُنْتُ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ قُلْتُ أَكْحَلُ الْعَيْنَيْنِ وَلَيْسَ بِأَكْحَلَ " [حسن رواه الترمذي]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ قَالَ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ"
[حديث حسن رواه الترمذي]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ قَالَ مَا كَانَ ضَحِكُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إلا تَبَسُّمًا قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا [حَدِيثٌ صَحِيحٌ]

رأي رشيد رضا والعقاد في ﴿ واهجروهن في المضاجع ﴾

قال الأستاذ رشيد رضا " فإذا هجر الرجل المرأة وأعرض عنها رغم نومه معها في فراش واحد فإن ذلك الشعور والسكون النفسي يدعوها إلى سؤاله عن السبب ، ويهبط بها من المخالفة إلى وصف الموافقة ، وكأني بالقارئ وقد جزم بأن هذا هو المراد " .

ويعترض العقاد على رأي رشيد رضا وبشرح الحكمة من الهجر فيقول : " والمرأة تعلم أنها ضعيفة إلى جانب الرجل ... وعزاؤها الأكبر عن ضعفها أن فتنتها لا تقاوم، ويكفيها أنها لا تُقاوَم بديلاً من القوة في الأجساد والعقول ، فإذا قاربت الرجل وهى في أشد حالاتها إغراء بالفتنة ، ثم لم يهتم بها ، ولم يؤخذ بسحرها ، فإنه يقع في نفسها أن تشك في صميم أنوثتها وأن ترى الرجل في أقدر حالاته مستحقاً للهيبة وخضوعها ، وأن تشعر بالضعف ثم لا تتصبر بالفتنة ولا بغلبة الرغبة ، فهو يملك أمره إلى جانبها وهى إلى جانبه لا تملك شيئا إلا أن ترجع إلى التسليم ."

والحقيقة أنه ليس هناك أي تعارض بين رأيي الأستاذين : رشيد رضا ، والعقاد بل يكمل أحدهما الآخر فإذا كان رأي رشيد رضا من هجر الزوج زوجته في الفراش بسبب عصيانها له يؤدي إلى سؤالها عن السبب ويجعلها تراجع نفسها وتطيع زوجها يصلح مع الزوجة الصالحة سوية النفس رقيقة الطبع ، لذا يجب على الزوج ألا يتمادى في الهجر بل يسارع في قبول اعتذارها والتجاوز عن خطئها ، حتى لا يجرح كرامتها ولا يذل كبريائها مما يحافظ على المودة والرحمة جعلها الله بينهما . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ

خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لتسكنوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ... ﴾ [الروم:٢١] وهذا هو الهجر الجميل الذي كان يتبعه النبي في معاملة زوجاته إذا أراد معاقبة أحدهن عند مخالفة ارتكبتها .

أما رأي العقاد فيصلح مع الزوجة سيئة الطبع غليظة القلب فيكون هجر زوجها لها في الفراش وتماديه في الهجر إذلالاً لنفسها المتكبرة ، وكبحاً لجماحها . فإذا لم ينفع الهجران هذا كما لم تنفع قبله الموعظة الحسنة اضطر إلى الضرب ضربا غير مبرح، أي غير شديد ولا مشين .

وعلى ذلك فإن كلا الرأيين يمثلان موقف صاحبيهما من المرأة فإذا كان رشيد، كشيخه محمد عبده ، يحترم المرأة ويقدر دورها ويدافع عنها فإن العقاد المرأة بالنسبة له .

موقف العقاد من المرأة

إن حياة المرأة بالنسبة للعقاد تتلخص في كلمتين اثنتين هما: إغراء وإغواء ؛ فهي عندما تضع الأحمر والأبيض وتعرض نفسها في الشارع أو النافذة انتظاراً للرجل تكون في طريقها إلى الإغراء فإن لم يكف الإغراء فوراءه يأتي الإغواء ويكون هذا الإغواء بتنبيه الرجل إليها وإذا لم ينتبه لها الرجل توحي له بزينتها لتحريك إرادة الرجل بعد ذلك يأت دور الانتظار من المرأة فهي تمتلك قدرة عجيبة على الرياء والتظاهر بغير ما تخفيه لأنها خلقت لتتمنع وهي راغبة ، فتخفي الحب مفضلة عدم المفاتحة به والسبق إليه وتخفي البغض لأنها محتاجة إلى المداراة احتياج كل ضعيف إلى مداراة الأقوياء لهذا فإن عجائز النساء أشد كيداً وحيلة من صغارهن فإذا اتخذت عجوزاً منك موقفاً عدائياً ظاهراً أو باطناً فخف منها ومن دهائها وقد تحسب المرأة حمقى لتخدعها فإذا هي التي تخدعك لأنها تتظاهر بالغباء لكن أغبى امرأة تستطيع أن تخدع أذكى الرجال لأن الضعيف الذي يعرف كيف يستغل ضعفه قوي وتتحقق إرادة المرأة بأمرين: النجاح في أن تُراد والقدرة الهائلة على الانتظار.

وهو يرى أن المرأة لم تتفوق في أي شيء ، فالمرأة من مئات الألوف من السنين، ولكننا لم نعرف طبيبة مولدة بارعة ، أو عالمة اخترعت شيئاً يخفف على المرأة آلام الولادة ، والمرأة تطهو ، ولكن أشهر الطهاة رجال ، والمرأة تخيط ملابسها مصممي الأزياء من الرجال ، والمرأة تبكي وتلطم ولكن أروع شعر رثائي هو الذي نظمه الرجال وليس الذي نظمته الخنساء ! ويرى الأستاذ أن أعظم عمل تقوم به المرأة هو أن تلد ، وهو ما يعجز عنه الرجل ، وإذا كانت المرأة هي التي تصون الحياة ، فإن الرجل هو الذي يطورها ، وإن عالم المرأة ضيق جداً : فهي تقارن الرجال بزوجها أو حبيبها أو ابنها ، وللتدليل على ضيق أفق المرأة تسألها : كيف حالك ؟ فتقول لك : إن الأولاد لا بأس بهم ، وإن زوجها مريض ، وإذا سألت رجلاً عن حاله فإنه يحدثك عن عمله ، أو عن السياسة أو التطورات العلمية .

ويقول العقاد ، وهو يردد ما قاله شوبنهور : إن المرأة أقدر على معايشة الألم والعذاب . وليس سبب ذلك قدرتها على الاحتمال . إنما سبب ذلك بلادة حسها ، فالممرضة ترى أنواع العذاب والدماء والصديد وتسمع الصراخ والبكاء وتبلع ذلك ، لا لأنها ملاك الرحمة الذي يعمل على إنقاذ المعذبين ، ولكن لأنها بليدة الحس ! وليس صحيحاً أن المرأة جنس لطيف بل هي جنس عنيف .. ويختم أنيس منصور حديثة عن رأي العقاد في المرأة فيقول : " وأنا أعتقد أن العقاد هو أعدى أعداء المرأة " (١)

الرد على موقف العقاد من المرأة

والخطأ الذي وقع فيه العقاد في نظرته إلى المرأة هو مقارنتها بالرجل كأنهما نوع واحد كما هما جنس واحد والحقيقة أن الرجل والمرأة نوعان مختلفان لكل نوع منهما سماته التي تميزه عن غيره والتي تهيئه للقيام بدوره الذي كلفه الله به.

---

(1) أنيس منصور " في صالون العقاد كانت لنا أيام "دار الشروق ص ١١٥- ١١٧ بتصرف .

أما قول العقاد إن المرأة تتصف بالإغراء فنعم فالنساء كالزهور الجميلة التي تجذب النحل بألوانها البديعة من أجل امتصاص رحيقها لإنتاج العسل ، والمرأة جعلها الله تعالى جميلة لجذب الرجل للتكاثر وتعمير الكون فالمرأة قد جعلها الله تعالى هي التي تحافظ على بقاء النوع البشري بجذب الرجل إليها ثم تحمل منه ثم تضع حملها وترضعه وترعاه ، ولقد جعل الله تعالى المرأة بارعة في كل ما يحفظ النسل فجمالها ورقتها ودلالها لجذب الرجل وقوتها وتحملها في حمل الجنين والوضع ، وصبرها على تعهد الطفل بالرعاية حتى يشب ويكبر ويعتمد على نفسه كما أن دورها مع الرجل لا يتوقف بترغيبه في الزواج بها وإنجاب الذرية التي تحمل اسمه بل أيضا في رعايته وكما هو يقوم على طعامها وشرابها ومسكنها وحمايتها فهي تقوم أيضاً على أعداد طعامه وشرابه وراحته وسعادته وتربية أبنائه كما تقوم بمساعدته في عمله إذا تطلب الأمر كما تساعد الفلاحة زوجها .

أما أن الحكمة في تفوق الرجل في كل الأعمال العامة حتى التي تخص النساء لأن هذا هو عمله المكلف به عمل عام للرجال والنساء بخلاف المرأة فعلمها خاص بزوجها وأسرتها في المقام الأول ، وإن الخطأ الذي وقعت فيه بعض المجتمعات في محاولتها مساواة الرجل بالمرأة في مجال عمل الرجل ، فكما أن الرجل لا يصلح للقيام بأعمال المرأة التي بيناها فإن المرأة لم تخلق للقيام بأعمال الرجل كما يؤديها هو وكما قد هيئه الله لأدائها .

وليس صحيحاً أن الرجال فقط هم المتفوقون في مجال الطهو ، والأزياء ، وسائر المهن والأعمال فالحقيقة أن هناك نساء كثيرات ماهرات في كل هذه المجالات ولكن الماهرات في مجالات عمل الرجال هن المتفرغات له تفرغ الرجال وغالباً ما يكون هذا التفرغ على حساب عملها الذي خلقت له رعاية الأسرة : تحبيب الرجل في الزواج بها، ورعايته ورعاية أولادها ثمرة زواجها به .

وليس صحيحاً أن النساء متلبدات الحس كما زعم العقاد بل العكس وهو الصحيح فإن الذي يميز المرأة عن الرجل غلبة مشاعرها وعواطفها .

والذي دفع العقاد إلى قول هذا الكلام عن المرأة هو فشله في علاقته بكل من أحبهن (سارة ، ومي ، ومديحة) فهو دائم الاعتزاز بنفسه كرجل كما هو دائم الهجوم على المرأة كأنثى .

نظرة الإسلام لكلٍّ من الذكر والأنثى

أما نظرة الإسلام لكلٍّ من الرجل والمرأة من حيث : طبيعة كل منهما ، وعمله المكلَّف به ، والأكرم عند الله منهما .

الله تعالى قد خَلَق كلاً من الرجل والمرأة من نفس واحدة آدم عليه السلام ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:١] وجعل لكلٍّ منهما طبيعة خاصة ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى ﴾ [آل عمران:٣٦] وجعل لكل نوع منهما عملاً مختلفاً في الحياة يتناسب مع طبيعته ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ [الليل : ٤] فالرجل مسئول عن توفير احتياجات أهله : المسكن والمأكل والمشرب والملبس والحماية .. " الرَّجُلُ راعٍ في أهلِه وهو مَسْئُولٌ عن رعيَّتِهِ " [البخاري] والمرأة ترعى شئون البيت ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب:٣٣] وتهيِّئ لمن فيه سبل الراحة والسكن وتشيع فيه المودة والرحمة ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الرُّوم:٢١] "والمرْأةُ راعِيةٌ في بيتِ زوجِها ومَسْئُولةٌ عن رعِيَّتِها " [البخاري] وتعمل المرأة خارج البيت في حالتين : أن يكون المجتمع في حاجة إلى عمل لا يحسنه غيرها ، أو أن تكون هي في حاجة إلى عمل لا يقوم به سواها ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ

وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص:٢٣] على ألاَّ تخلَّ المرأة بعملها الأساسي في البيت ، وأن تختار ما يناسبها من عمل ، وأن تلتزم بآداب الإسلام وأخلاقه في الملبس والسلوك ﴿ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى ﴾ [الأحزاب:٣٣] " صِنفانِ مِن أُمَّتي لَمْ أرَهما : قومٌ معهم سِياطٌ مِثْلُ أذنابِ البقَرِ يضرِبونَ بها النَّاسَ ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مائلاتٌ مُمِيلاتٌ رؤوسُهنَّ مِثْلُ أسنِمَةِ البُخْتِ المائلةِ لا يدخُلونَ الجنَّةَ ولا يجِدونَ ريحَها " [رواه مسلم] وعنِ ابنِ عبَّاسٍ قالَ : " لُعِنَتِ الواصلةُ والمستوصلةُ ، والنَّامصةُ والمتنمِّصةُ ، والواشمةُ والمستوشمةُ ، مِن غيرِ داءٍ " [صحيح الألباني]

وعلى لكل من الرجل والمرأة أن يرضى بما خصَّه الله تعالى من طبيعة وما كلَّفه به عمل ﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [النساء:٣٢] قال ابن عباس : " لعَن رسولُ اللهِ ﷺ المُتَشَبِّهينَ من الرجالِ بالنِّساءِ ، والمُتَشَبِّهاتِ من النساءِ بالرجالِ " [البخاري] والأكرم منهما عند الله ليس بنوعه إنما بإيمانه وإخلاص عمله الذي كلَّفه الله به ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣] ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧]

أنواع الجهاد

قال العقاد مبيناً موقف الإسلام من الجهاد : " حروب النبي ﷺ كانت كلها حروب دفاع ، ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد والإصرار على القتال " (١)

---

(1) عباس محمود العقاد " عبقرية محمد " مرجع سابق ص ٣٠

ويقول في موضع آخر : " وحدث فعلاً أن المسلمين فتحوا بلاداً غير بلاد العرب، ولم يفتحوها ولم يكن يتأتى لهم فتحها بغير سلاح . إلا أنَّ هذه الفتوح تأخرت في الزمن ... ثم إن هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة الدولة إن لم تفرضها الدعوة إلى دينها " (١)

ويقول أيضاً : " لم يتخذ محمد ﷺ الحرب صناعة ولا عمد إليها كما أسلفنا إلا لدفع غارة واتقاء عداوة " (٢)

هذا ما ذكره العقاد في الجهاد وسوف نعرض أهداف الجهاد في الإسلام وأنواعه للرد على قَصْر العقاد الجهاد على جهاد الدفع دون جهاد الطلب .

الجهاد نوعان : جهاد دفع ، وجهاد طلب .

أولاً : جهاد الدفع

والمقصود به رد العدوان على النفس والدين والعرض والمال .. قال تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ [البقرة: ١٩٤] . ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠]

حُكْمُه : أجمع علماء المسلمين على أن جهاد الدفع على أمة محمد ﷺ فرض كفاية، فإذا قام به من قام من المسلمين يسقط عن الباقين إلا أن ينزل العدو بساحة الإسلام فهو حينئذ فرض عين ، وهذا ما تقره جميع القوانين الدولية كميثاق الأمم المتحدة .

قال القرطبي : " إذا تعين الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار، أو بحلوله بالعقر، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافا وثقالا، شبابا وشيوخا، كل على قدر طاقته، من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب له،

---

(1) نفسه ص ٣٣

(2) نفسه ص ٤٠

ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج، من مقاتل أو مكثر. فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوهم كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة، حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم. وكذلك كل من علم بضعفهم عن عدوهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياثهم لزمه أيضا الخروج إليهم، فالمسلمون كلهم يد على من سواهم، حتى إذا قام بدفع العدو أهل الناحية التي نزل العدو عليها واحتل بها سقط الفرض عن الآخرين. ولو قارب العدو دار الإسلام ولم يدخلوها لزمهم أيضا الخروج إليه، حتى يظهر دين الله وتحمى البيضة وتحفظ الحوزة ويخزى العدو. ولا خلاف في هذا. " (١)

ثانياً : جهاد الطلب

والمقصود به نصر المظلومين المستضعفين من الأمم والشعوب متى امتلكت الأمة الإسلامية القدرة على ذلك ، قال الله تعالى: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهله﴾ [النساء: ٧٥]

حُكْمُه : جهاد الطلب فرض كفاية على الأمة دون الأفراد فإذا وجد الحاكم أمة مستضعفة محتلة وكان يملك من القوة طرد المعتدي ورفع الظلم عنها ندب الناس للجهاد كما فعل الخلفاء الراشدون ومن سار على نهجهم في فتح البلاد : عربية وغير عربية لرفع الظلم الواقع على الشعوب الواقعة تحت الاحتلال الفرس أو الروم أو حكام مستبدين ، وهذا النوع من الجهاد منصوص عليه في ميثاق الأمم المتحدة في الفصل السابع فجاء في المادة ٤١ : " لمجلس الأمن أن يقرر ما يجب اتخاذه من التدابير التي لا تتطلب استخدام القوات المسلحة لتنفيذ قراراته، وله أن يطلب إلى أعضاء " الأمم المتحدة " تطبيق هذه التدابير، ويجوز أن يكون من بينها وقف الصلات الاقتصادية والمواصلات الحديدية والبحرية والجوية والبريدية والبرقية واللاسلكية

(1) تفسير القرطبي ج ٨ ص ١٥١ ، ١٥٢ .

وغيرها من وسائل المواصلات وقفا جزئياً أو كليا وقطع العلاقات الدبلوماسية . المادة ٤٢ : إذا رأى مجلس الأمن أن التدابير المنصوص عليها في المادة ٤١ لا تفي بالغرض أو ثبت أنها لم تف به، جاز له أن يتخذ بطريق القوات الجوية والبحرية والبرية من الأعمال ما يلزم لحفظ السلم والأمن الدولي أو لإعادته إلى نصابه. ويجوز أن تتناول هذه الأعمال المظاهرات والحصر والعمليات الأخرى بطريق القوات الجوية أو البحرية أو البرية التابعة لأعضاء "الأمم المتحدة ."

وبناء على ذلك فإن على مجلس الأمن اتخاذ كافة التدابير بما فيها استخدام القوات المسلحة لرفع قهر محتل أو بطش مستبد كما حدث في حرب تحرير الكويت من الغزو العراقي أو إسقاط نظام القذافي .

ولقد ذكر العقاد في آخر الكتاب ما يفيد الحديث عن جهاد الطلب وما يناقض كلامه من أن الجهاد في الإسلام قاصر على الدفاع فقط فقال : " ولقد فتح الإسلام ما فتح من بلدان لأنه فتح (أي الإسلام) ما فتح من بلدان لأنه فتح في كل قلب من قلوب أتباعه عالماً مغلقاً تحيط به الظلمات ، فلم يزد الأرض بما استولى عليه من أقطارها ، فإن الأرض لا تزيد بغلبة سيد على سيد أو بامتداد التخوم (الحدود) وراء التخوم ولكنه زاد الإنسان أطيب زيادة يدركها في هذه الحياة ، فارتفع به مرتبة فوق مستوى الحيوان ، ودنا به مرتبة إلى الله . "(١)

فالعقاد هنا يريد أن يقرر أن الجهاد يكون رفعاً للظلم عن الأمم المظلومة ونشر الحق فيها في حال قوة المسلمين وشدة شوكتهم كما هو مقرر في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وهو بهذا قد ناقض نفسه إذ ذكر قبل ذلك أن الجهاد إنما يكون لحماية الدعوة لا سوى ذلك بحال .

***

(1) عباس محمود العقاد " عبقرية محمد " مرجع سابق ص ١٥٣